قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

قبل أن ينقشع الظلام!

تأكدتُ أمس وأنا أقرأ افتتاحية رئيس تحرير إحدى الصحف أن مشكلة العراق ليست بسبب شخص أو حزب، وأنّ صدام لم يكنْ رجلاً، كان ثقافة خراب ووعياً منكوساً تخلل الجسد العراقيّ حتى وصل إلى العظم. وأن هذا الوعي وتلك الثقافة فعلتا الأعاجيب في معظم العراقيين حتى من لم يكن داخل العراق منهم إبان حكم صدام.

للسلطة سطوة، وللقوة هيبة تدير إليها رؤوس حتى أولئك الذين يظنون أنفسهم أن ثقافتهم ووعيهم تحجزهم عن ارتكاب موبقة مساندة الحاكم، فكيف إذا كان هذا الحاكم سخياً مع من هو مستعد للردح ذباً عنه حقاً وباطلاً ظالماً أو مظلوماً.

كلمة رئيس التحرير هذه فسّرتْ لي أموراً كثيرة كنت أجهلها، كنت أندهش كيف أن صدام قاد جيشاً من المثقفين معه إلى هاوية الرذيلة، وحين سقط في حفرته تفرّق هذا الجيش العرمرم وكلّ منهم يخفي ذيله بين قدميه ويتحدث عن "معارضة" مزعومة، وعن اضطهاد وعن مناهضته صدام ورهطه، ويزايدون بإلحاح من شأنه أن يشكك معارضي صدام الحقيقيين بأنفسهم.

بلاغة التملّق لا تخطئها العين الباصرة، أعادتنا إلى أيام صحف "الثورة" و"الجمهورية" و"القادسية"، تُقرأ من عنوانها الذي يسمّي عصر السيّد المالكي بعصر الأنوار، ويخوّفنا من أزمنة الظلام التي ستعقب طبعاً إقالة حامي حمى العراق.

مؤسٍ ما يفعله البعض بأنفسهم لقاء المال، يدمّرون أحلامنا بعراق لا صنم فيه. كيف تعلم هؤلاء صناعة الأصنام وتزيينها، وبعضهم لم يكنْ هنا أيام كانت صناعة الأصنام مهنة مثقفين تدرّ عليهم ضمائرهم المزوّرة دنانير صدامية مزوّرة أيضاً؟

ليس خطأ المالكيّ أنْ وجد له سنداً في هتّاف وبزّاخ قديم هوّس لصدام يوماً "إصبع من جفك يسوا أمريكا وما بيها" وها هو يهوّس من جديد لرئيس الوزراء الذي لا بدّ أنه في قرارة نفسه يحتقر نموذجاً كهذا ويزدريه لكنه أنفع له من مثقف انتقادي يحترم نفسه ووعيه، فعلى مرّ الأزمان كان الحاكم. الذي يريد أن يبقى حاكماً بأي ثمن. يطمئنّ لذوي الثقة لا لذوي الخبرة ويقرّب أولئك لا هؤلاء.

وأمس أيضاً نقلتْ إحدى الوكالات خبراً عن حملة تواقيع بالدم لمساندة المالكيّ ضد حجب الثقة عنه، فتيقنتُ أن المتسلّط يجد له تلقائياً مبخرين ومطيين لشخصه الكريم بمجرد أن يمتلك المال والقوة، وأن نحاتين كثراً يتسابقون لنحت صنم له، وأن هؤلاء المتملقين هم أنفسهم الذين سينفضّون عنه ويكفرون به لحظة سقوطه باحثين عن طاغية آخر يسجدون له ليملأ أفواههم دولارات.

القبول بالطغيان والتصفيق له يريح ويُغني، لكنّ الرفض يزيد الوجه والروح بهاء. هكذا كنا نردد أيام معارضتنا الطويلة لصدام، وهي جملة صادقة اليوم أيضاً وغداً وإلى الأبد، مع كلّ مشهد فيه شعبٌ محروم وحاكم يريد أن يتأبّد ومثقفون متملقون.

التصحّر السياسي

د.رضا الشوك

ورد في قصة حي بن يقظان لمؤلفه ابن طفيل، أن الذكاء أو الوعي الإنساني يولد في الإنسان، وكان يشاطر هذا الرأي فلاسفة الإغريق الأوائل وكذلك فلاسفة المدرسة الميتافيزيقية الأوروبية، وقد تعرضت هذه الأفكار إلى الكثير من الانتقادات الشديدة في حينه وحتى بعد وفاته بفترة طويلة، والآن يبدو أن الأبحاث العلمية الحديثة أخذت تؤكد صحة موقف ابن طفيل، إلا أن الدكتور علي الوردي، العالم الاجتماعي العراقي الشهير، قدم دراسة مستفيضة عن المجتمع العراقي حيث أوضح بأن أهم خصائص التطور والتمدن هي خاصية (الارتداء) أي الارتدائية في التطور الحضري، وكان معارضاً في ذلك المفهوم الذي جاء به ابن طفيل.

ويؤكد الوردي في بحوثه عن المجتمعات لاسيما العراق قائلاً: (إن القبائل العربية بعد استقرارها باستيطانها السهول الرسوبية –وقد سماها بالقبائل الرسوبية تأتي بعدها موجة جديدة من القبائل البدوية من الجزيرة العربية مهاجرة بسبب القحط لتدخل العراق غازية، مما يؤدي إلى شيوع القيم البدوية بعد هيمنتها على القيم الحضرية وعودة المجتمع العراق إلى حالة سابقة، أي العودة إلى الوراء، وهذه العودة تشبه الكابوس الاجتماعي من نوع ما جاء به أرسطو طاليس، الذي رأى نظريته عن التاريخ، بأن التاريخ الإنساني هو (دوراني) بمعنى، ما أن بلغ الإنسان أعلى مرحلة من حضارته، حتى تحصل كارثة طبيعية أو حرب تؤدي إلى تدمير ما بناه الإنسان من حضارة وتعود به إلى الوراء).

لقد كانت نظرية أرسطو طاليس حول التاريخ الإنساني مقبولة، وأنها صحيحة بسبب استمرار تدمير الحضارات الواحدة تلو الأخرى، إلا أننا أصبحنا نعتبرها غير صحيحة في الوقت الراهن لأن التاريخ الإنساني هو تراكمي وليس دورانياً، فالإنسان لا ينسى ما تعلمه لأن الحضارة الإنسانية الحالية هي تراكم لحضارات إنسانية سبقتها، أما ما ورد في أطروحة الوردي حول ارتدادية التحضر في العراق هي حالة خاصة وقد بناها على ملاحظاته الميدانية للتطور الاجتماعي في العراق وشيوع حالة الارتداد بسبب وقوع القرى العراقية على خط يفصل بين البداوة والتحضر، خط قلق يفصل بين الاستقرار والتجوال إلى درجة أن القرية العراقية وحتى يومنا هذا تعيش ازدواجية اجتماعية تتمثل في تواجد قيم البداوة جنباً إلى جنب مع حالة الاستيطان.

إن تواجد قيم البداوة جنباً إلى جنب مع حالة الاستيطان، سببه أن العرب بعد استيطانهم وتمدنهم تجدهم ينظرون نظرة إكبار إلى البداوة على أنها حالة نقية وحالة من الشهامة والعزة والمروءة والشجاعة والكرم، والى ما هذه التلفيقات الرومانسية التي لا أساس لمعظمها من الصحة، ومن الجدير بالذكر إن نظام الحكم الذي كان في العراق اعتمد على مثل تلك التلفيقات الرومانسية، وقبل الوردي بعد قرون، أخذ الفيلسوف ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع بالحسبان الظروف البيئية والمناخية والاجتماعية لما لها من تأثير على تطور المجتمع والتاريخ، وقد ورد ذلك في كتابه تاريخ العرب المجلد الأول الذي يحوي مقدمته الشهيرة (بأن البداوة هي العدوّة اللدودة للحضارة) أي للتحضر وللتمدن، وقال موضحاً إن حضارة تونس تبلغ مستوى عالياً حتى تأتي موجة بدوية أخرى فتقوم بتدمير ما بنته عدة أجيال من التونسيين.

إن شبه الجزيرة العربية ليست المنطقة الوحيدة من بين مناطق العالم التي قاوم فيها البدو معالم التحضر وإنما حصل نفس الشيء في أوروبا حيث قامت قبائل الفايكنك والنورمان واللومبارد منذ العصور الوسطى بمواصلة تدمير معالم الحضارة الأوروبية التي ظهرت في المدن الأوروبية في إيطاليا وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وكذلك في بريطانيا، وقد عاش معظم الأجزاء المتمدنة في قارة آسيا ومن ضمنها العراق فظاعة وإجرام القبائل الغازية المغولية التي كانت هي الأخرى بدوية.

إن عداوة البداوة الشديدة للتحضر وردت في مقدمة ابن خلدون كفكرة توصل إليها هذا العالم الاجتماعي خلال دراساته لمجتمعات البلدان التي زارها ومن بينها العراق، وقد تأثرت هذه الفرضية عبر التاريخ الإنساني في مختلف بقاع الأرض، والأمر ذاته بشأن ظاهرة (الارتدادية) في التطور الاجتماعي والحضري العراقي الذي ساد معظم سني القرن العشرين وأن ذلك الانعكاس سببه الازدواجية الاجتماعية التي تعيشها القرية العراقية من حيث تواجد قيم البداوة جنباً إلى جنب مع حالة الاستيطان وسببه الأهم ايضاً هو، أن سياسيّي العراق وحكامه لاسيما خلال النصف الثاني من القرن العشرين قد انحدر معظمهم من مثل تلك القرى التي تعيش ازدواجية اجتماعية من قيم البداوة مجانبة حالة الاستيطان، وأن نظام صدام حسين هو أفضل من يمثل قيم تلك القرى، والتصحر السياسي يعني تجريد الوضع السياسي الذي يعيشه المجتمع من كل سمة من السمات العصرية المتحضرة التي تسود حياة المجتمعات المتقدمة حضارياً والتركيز بدلاً من ذلك على قيم البداوة المتوارثة عن أجيال سابقة، إما لأسباب فكرية كما كان حال حركة طالبان في أفغانستان أو ارتداداً لتلك القيم البدوية المتوارثة بسبب ملاءمتها لإقامة نظام طغيان كما كان في العراق قبل سقوطه، وللتصحر السياسي خواص مستقاة من حياة وقيم وثقافة البداوة، من أهمها:

١- اضطهاد وقهر المحكومين، أي بنفس الأسلوب الذي تعاملت به قبيلة أو قبائل غازية.

٢- ضعف الارتباط بالأرض والاستعداد للتضحية منها لأجل مكاسب سياسية تتعلق ببقاء نظام الحكم، وأن ضعف الارتباط بالأرض هي سمة أساسية من سمات البداوة.

٣- العصبية السياسية وعدم السماح لآراء سياسية أخرى بالعمل حتى وإن كانت تقترب من آراء النظام الحاكم، وبعبارة أخرى التشبث المطلق بالأحادية السياسية التي هي ملائمة للفهم البدوي للأمور التي تتسم بالبساطة والتجريد وهذا هو انعكاس للبيئة الصحراوية البسيطة.

٤- تفضيل الأجل القصير على الأجل الطويل لأن حياة البداوة هي يوم إلى آخر ومن أسبوع إلى أسبوع ومن شهر إلى شهر ومن موسم إلى موسم آخر.

٥- غلبة الرغبة في التدمير على الرغبة في البناء لأن مع التدمير رحيل ومع البناء استقرار والبدوي يفضل الأول على الثاني.

٦- غلبة العاطفة على العقلانية.

٧- هيمنة المشيخة السياسية وتأليه الحاكم.

٨- شيوع الخشونة والقسوة التي هي انعكاس للبيئة الصحراوية.

٩- انعدام الثقة بالآخرين وتوقع الخيانة والغدر من الآخرين وذلك لأن الطبيعة متلازمة مع السلب والنهب والغزو والسطو.

١٠- العناد والإصرار بأنه لا يمكن أن يكون هناك خطأ في أي فكرة، وسلوكه أو حياته هو الصحيح والآخرون هم المخطئون.

إن كل ما ورد من صفات تنطبق على نظام صدام حسين المباد الذي انهار صبيحة التاسع من نيسان ٢٠٠٣، لقد عاش العراق خلال تاريخه الطويل صراعاً بين التحضر والبداوة، وفي ظل الحكم الزائل كان انتصار البداوة على التحضر، إن المهام الأولية للشعب العراقي وحكامه الجدد هو الشروع في عملية البناء التي تحتاج إلى وقت ليس قصيراً ما دامت الفرصة سانحة في الوقت الراهن في ما يخص الاستثمار على نطاق واسع في مختلف معالم الحياة المتحضرة بعيداً عن العصبية القبلية وعن سلوك البداوة العدوة اللدودة للمدنية وكل ما هو متعلق بالحضارة الإنسانية.

هوية العراق بديلاً عن الهويات القاتلة

لقد عاش العراق خلال تاريخه الطويل صراعاً بين التحضّر والبداوة، وفي ظل الحكم الزائل كان انتصار البداوة على التحضر، إن المهام الأولية للشعب العراقي وحكامه الجدد هو الشروع في عملية البناء التي تحتاج إلى وقت ليس قصيراً ما دامت الفرصة سانحة في الوقت الراهن في ما يخص الاستثمار على نطاق واسع في مختلف معالم الحياة المتحضرة بعيداً عن العصبية القبلية وعن سلوك البداوة العدوّة اللدودة للمدنية وكل ما هو متعلق بالحضارة الإنسانية.

ثقافة التضحية من يقتل اللاجئين العراقيين في سوريا ؟

ناظم محمد العبيدي

يقول مالوان زوج الروائية المعروفة أجاثا كريستي في مذكراته التي تروي تفاصيل عمله كمنقب عن الآثار في العراق ، أنه عثر أثناء تنقيبه في تلال نينوى في ثلاثينات القرن الماضي على حجرة تحتوي على آلاف الدمى الطينية التي تصور عيناً كبيرة ، ويذكر أنه لم يعرف لماذا تكدس كل هذا العدد وما الذي تعنيه تلك الدمى التي أخذت شكلاً واحداً ، وبعد تفكير طويل توصل إلى أن هذه الغرفة المطمورة منذ آلاف السنين تعود لكاهن ، وأن هذه الدمى هي لنساء اعتدن على زيارة الكاهن من أجل الإنجاب والتبرك وتقديم الهبات ، هذه الحادثة وغيرها الكثير وفي مختلف العصور اللاحقة لشعب الرافدين وغيره من الشعوب ترتبط بثقافة النذر والأضحيات والمعتقدات المرتبطة بها ، هذه المعتقدات التي كرست لدى الناس مبدأ التضحية ، ومن هنا انطلقت الحناجر : بالروح بالدم نفديك يافلان ...

ويمكن الاستعاضة عن فلان بأي مسمى شئت ، وهكذا وجد الحاكمون ومن يمتلكون سلطة ما آلية يمكن من خلالها دفع الناس إلى الهلاك تحت هذه الذريعة أو تلك ، ولماذا لا يفعلون إذا كان الاستعداد لدى الأفراد المحكومين موجوداً أصلاً ؟ وأن فكرة الموت مستولية على عقول أصحابها ولا ينقصهم إلا إعطاؤهم إشارة البدء ليمضوا في إفناء أرواحهم أو ممتلكاتهم من أجل صاحب الفخامة أو القداسة ؟

إن خطورة هذه الثقافة تكمن في تكريس فكرة الموت والخراب لدى شعوب بأسرها ، فلا يتورع الحاكمون عن زج الملايين من الناس في محارق الموت والهلاك ، والمفارقة هنا هو استمرارية عملية الإفناء والتضحية في دائرة يتحرك فيها المضحي والمضحى من أجله بلا هوادة ، وكأن التاريخ يحمل في صيرورته من يشتهي الموت وتعذيب الذات ، ومن يشرف ويتنعم بتلك التراجيدية الإنسانية وربما وجد فيها مجداً شخصياً ، يرفعه إلى مصاف الآلهة ، مثلما تقول إحدى شخصيات الروائي نجيب محفوظ : ليس الغريب اعتقاد المصريين أن فرعون إله ولكن الغريب أن فرعون صدّق نفسه !

والنتيجة الطبيعية لشيوع هكذا إشكالية ثقافية اجتماعية هو ضياع الحرية الإنسانية وفقدان الناس فرص الحياة ، لأن المبدأ الذي يحرك الناس حينه يستبطن التضحية والتخلي عن الوجود ، فلا غرابة إذن أن يظهر المقاتلون في البلدان الفقيرة البائسة التي تهيمن عليها هذه الثقافة شبه عراة ، في ملابس عسكرية بالية ووجوه متربة حاملين بنادقهم ، مستعدين للقتال حتى الموت من أجل مشروع يديره حفنة من اللصوص والدجالين ، فهل نتوقع لمثل هكذا مجتمعات أن تفكر بنقل التكنولوجيا أو بناء جامعات علمية ، أو بناء أوطانها ؟

لم تتخل أوروبا عن فكرة خوض الحروب إلا بعد أن دفعت أثماناً باهظة لتلك النزعة المجنونة للتضحية بالناس ، والخطأ الذي وقعت فيه تلك الشعوب كما حدث مع ألمانيا مثلاً ، أصبحت حاضرة في ذاكرة العالم إلى اليوم ، بل إن انقلابة فكرية هائلة حدثت بسبب ذلك ، وانعكست أيضا في الفن والأدب ولاتزال حتى الساعة ترى فيها دروساً أخلاقية وفكرية تستحق الإعادة لتمنع تكرار تلك المآسي الكونية ، بعكس ما يجري في بلدان العالم الثالث التي تجترّ ماضيها في لعبة أزلية ، وتسيطر عليها الأفكار ذات المنحى الأسطوري المروج لمبدأ التضحية وإفناء الذات ، ويمكن لنا هنا أن نسوق مثالاً صارخاً عما تفعله ثقافة حب الحياة ونقارن بين دولة خليجية استثمرت ببساطة ثرواتها النفطية وجعلت من الرخاء الاجتماعي مبدأ لسياستها ، وبلد مثل العراق حكمه نظام يحمل فكرة التضحية من أجل الأمة عن طريق الحروب ودفع الناس إلى الموت ، فماذا كانت النتيجة ؟

لا يمكن للحياة أن تزدهر في بلد يمجد أهله التضحية وإفناء الذات ، وكلما مضى بطل وسمسار يختص بتزويد الراغبين بجواز المرور إلى الهلاك سيولد آخر ، فكما تستجلب الحاجة إلى أية سلعة تجاراً يروجون لها للتكسب، تجلب الحاجة إلى الافتداء والتضحية شخوصاً يحلمون بالصعود على أرواح الناس وتضحياتهم ، ومتى كف الناس عن التفكير في إعطاء أرواحهم وممتلكاتهم لشخص ما أو قوة ما ، سوف يختفي كل الأبطال وسدنة الموت وتزدهر الحياة، فمتى يتوقف الناس عن صنع أصنامهم التي تهيئ لهم المحارق والمقابر الجديدة ويقدمون لها الولاء متوسلين : أميتونا أو زيدوا من بؤسنا وآلامنا !

ثقافة تمجيد الخراب

باسم محمد حبيب

في خبر عاجل نقلته الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان نقلا عن نظيرتها السورية ، أن شابا عراقيا مسيحيا تعرض للقتل في ريف دمشق المضطربة أمنيا بعد تصديه لمجموعة مسلحة حاولت اقتحام الدار التي يقطن فيها مع والدته وأخواته الثلاث .

هذا في ما يتعلق بنص الخبر الذي أوردته الشبكة أعلاه أما تحليل ما ورد فيه من معلومات فلدينا جملة من التساؤلات حول سبب وجود هذا اللاجئ العراقي في سوريا وأيضا عن الجهة التي قامت بقتله ، فالخبر اتهم صراحة أجهزة الأمن الحكومية بأنها تقوم بأعمال عنف مريعة ضد المدنيين في المناطق التي تشهد اضطرابات أمنية .

ففي ما يخص الإجابة على التساؤل الأول لا يحتاج الأمر إلى ذكاء كبير حتى نعرف أن هذا الشاب وعائلته هو –على الأرجح– من ضحايا العنف الطائفي الذي شهدته وتشهده الساحة العراقية الآن والذي استهدف المسيحيين كما استهدف سواهم من الأقليات الدينية الأخرى ، ومن الطبيعي بعد الفظائع التي ارتكبها الإرهابيون والمجرمون أن يحاول بعض أبناء الأقليات البحث عن ملجأ آمن يقيهم التعرض لهذا العنف الأهوج ، ولأن سوريا هي أحد البلدان المجاورة للعراق فمن الطبيعي أن يقصدها بعض اللاجئين العراقيين طلبا للامان وبحثا عن سبيل للهجرة إلى دول أخرى .

أما التساؤل الآخر أو قل ما يوحيه الخبر من تساؤل عن الجهة التي تستهدف اللاجئين العراقيين ، فلدينا احتمالان يحمل كل منهما ما يدعمه من شواهد أو معطيات ،الأول هو الذي طرحه الخبر نفسه عندما اتهم السلطات السورية بأنها هي التي تقف وراء قتل الشاب انطلاقا من معلومات معينة أو لأنه قتل في منطقة تنتشر فيها القوات الحكومية ، أما الاحتمال الثاني الذي لا نستبعده أيضا فهو احتمال أن يكون القتلة من المجموعات الإرهابية التي وجدت في قتل الشاب تنفيسا عن عقدها الدينية المتطرفة ليكون الشاب من ضحاياها العديدين .

إن مقتل هذا الشاب يعيد إلى الأذهان عديد الاستهدافات التي تعرّض لها اللاجئون العراقيون في سوريا ، وهي استهدافات تتكرر بين فترة وأخرى سواء بالاغتيالات أو الإعدامات أو التفجيرات الانتحارية ،وإن ذلك يؤكد تشابك الوضع في سوريا وخطورته الشديدة على اللاجئين العراقيين .

إن من الضروري بمكان العمل على حماية اللاجئين العراقيين القاطنين في سوريا والبحث عن حلول عاجلة لوضعهم الإنساني الخطر ، وهذا الأمر يتطلب تعاونا جادا من الحكومة العراقية والمنظمات والهيئات الدولية المتخصصة بقضايا اللاجئين ، فالحكومة العراقية بصفتها المسؤولة المباشرة عن أوضاع المواطنين العراقيين مطالبة بالعمل على تمكين هؤلاء اللاجئين من العودة إلى وطنهم من خلال توفير الأجواء المناسبة لعودتهم ،كالأمن والمعيشة والخدمات ، أما المنظمات الدولية المتخصصة بقضايا اللجوء بشقيه السياسي والإنساني فعليها واجب النظر بسرعة في طلبات اللاجئين في الانتقال من سوريا إلى بلد آخر حتى يكونوا بمأمن من الأخطار التي تحيق بهم .

لاجؤن عراقيون في دمشق